

أ. د. إياد قنيبي

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٢/١١/٥٩١٤)

٢١١
قنيبي، إياد عبد الحافظ حماده
بهم فاقتدوا / إياد عبد الحافظ حماده قنيبي.- عمان: المؤلف، ٢٠٢٢
( )ص.
ر.إ.: ٢٠٢٢/١١/٥٩١٤
الواصفات: / الثقافة الإسلامية// الصحابة// طاعة الله// الوعظ والإرشاد/



الانقلابة الهائلة!

نقرأ القرآن فنتساءل: «لماذا لا نتأثر كما تأثر الصحابة؟ لماذا لا يعترينا البكاء كما كان يعتري الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؟ لماذا نكون شاردي الذهن أثناء قراءته بل وقد نتململ؟»

أتعرفون الجواب؟ لأن الصحابة كانوا يستمعون القرآن بنفسيةٍ غير نفسيتنا ونيةٍ غير نيتنا. كانوا يستمعونه بنفسية الذي ينتظر الأوامر للتنفيذ الفوري، محبةً وتعظيماً وخشيةً ورجاء. كانوا يفهمون جيدا وينفذون قول ربهم عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ (الأحزاب: ٣٦) فالاختيار بين طاعة الله ومعصيته ليس واردا عندهم.

كانوا ينتظرون الآيات مشاعل تهديهم في الظلمات...نفوسُهم أرضٌ عطشى تنتظر كلام الله انتظار المطر لتتشربه فيثمر من بذور الإيمان فيها أبهى الثمر... جهدُهم كله منصبٌّ على: «كيف ننفذ أمر الله كما يحب الله». نفسية طيبة كهذه ما إن يمسَّها الوحي حتى يتسارع القلب ويتهدج الصوت وتذرفَ العينان ويهتز الكيان وتستجيب الجوارح والأركان.

ماذا عنا نحن؟ لنكن صريحين!...يقرأ كثير منا القرآن بنفسية كسلى! تريد أن تتفلت من أوامر الله تعالى وتستسلم لأهوائها. إذا مرت بآية فيها أمر أو نهي لا يوافق الهوى حشدت جيشا من الأعذار كي تتملص من التنفيذ:

«لعل تفسير الآية على غير ظاهرها، ربما في الأمر خلاف، زماننا اختلف، الناس سيسخرون مني، الله غفور رحيم، أنا أعمل أعمالاً أخرى من الخير، سأفعل ذلك

فيما بعد، رويداً رويداً...ليست كبسة زر...لا أحد يستطيع أن يتخلى عن مألوفاته دفعة واحدة»...وهكذا! هناك نداء في أعماقنا من النفس اللوامة...نسمعه فنتردد، نحس بالذنب، ثم نتجاهل هذا النداء ونكبته ونتابع القراءة..

فهل ننتظر بعد ذلك أن يؤثر القرآن فينا كما كان يؤثر في الصحابة!

صحيح أن هناك عوامل معتبـرة قد تجعل أحدنا يتردد في الاستجابة لما «يقال عنه» أنه أمر الله تعالى، كأنْ تجد من يحمل الآية على معنىً واحدٍ غير مراعٍ في ذلك أقوالاً معتبـرةً في تفسيرها، فيُضَيِّقُ واسعاً ويجعل الأمور الاجتهادية قطعية...أو يطالب الناس بالعزيمة حين يسعهم الأخذ برخصة، أو لا يراعي الضرورة والإكراه.

لكن هذا «الحاجز» حَلُّه في طلب العلم وتلمُّس مراد الله منا، مع صدقٍ وتقوى في أننا سنلتزم أمر الله إذا عرفناه...وحينئذٍ فسيهدينا الله ويحفظ لنا حياة قلوبنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الأنفال: ٢٩)

فرقاناً في قلوبنا نفرق به بين الحق والباطل وما يحبه الله وما يبغضه، وفرقاناً نميز به أن هذا كلام العزيز الحكيم فترق له قلوبنا وتخضع وتتأثر..

أما إذا انضم إلى هذا الحاجز المعاذير التي ذكرناها أعلاه، «لعل» و«قد يكون» و«سيُغفر لنا » و«ليس دفعة واحدة»...ونحن مقيمون على المعاصي، فمن أين تأتي رقة القلب والخضوع؟

كيف نقول: «ليست كبسة زر» ونظن أن بإمكاننا أن نؤجل طاعة الله تعالى ونظن مع ذلك أننا نستطيع استجلاب العزيمة للطاعة فيما بعد بكبسة زر! مع أن الذي

يؤجل يُعَرِّض نفسه للحرمان من هذه العزيمة. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

استجيبوا...استجابة فورية.

ما الدافع؟: اليقين والإيمان والثقة بأن الله ورسوله لا يدعونا إلا لما يحيينا.

طيب وإذا أجلنا؟..... ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلست أنت المتحكم بقلبك بحيث تضمن هدايته وقت تشاء بعدما عرضته للفتن. وقد يحرمك الله من العزيمة على الطاعة بجريرة التلكؤ عن طاعته فيما مضى.

طيب وماذا يحصل بعد سنوات التسويف والغفلة؟....﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ...لتُجازَوا على أفعالكم.

إذا أردت أن تتأثر بالقرآن كالصحابة فاتخذ القرار الشجاع...أنك لن تختار بين طاعة الله ومعصيته، بل الطاعة هي خيارك الأوحد. هذا القرار صعب، لكنه يسهل جدا إذا وثقت بحكمة الله ورحمته، فلا يأمرك بأمر إلا وفيه حياتك، فيه نفعك والتيسير عليك والرفق بك في الدنيا والآخرة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) فإذا استقرت هذه القناعة في القلب انقلبت نظرتك إلى أوامر الله تعالى ونواهيه ورأيت الرحمة والحكمة والكرم الإلهي والأُنس فيما قد تكون ظننته مشقة أو حرماناً..

تقول: «ليست كبسة زر»...

بل هي أشبه ما تكون بكبسة زر !...

تقول: «لا أحد يستطيع أن يتخلى عن مألوفاته دفعة واحدة»...

بلى يستطيع ! إذا كان للإيمان جذور عميقة في نفسه...ضربُ الإيمان لجذوره عميقةً في النفس قد يحدث في لحظةٍ يقظةٍ عارمة كما حصل لسحرة فرعون، وقد يأخذ وقتاً ويحتاج تربية للنفس ومصابرة ومجاهدةً لها...لكن إذا حصل ووقر الإيمان في القلب، لم يحتجْ أحدنا إلى معركة جديدة في مجاهدة كل شهوة محرمة أو عادة مألوفة..

هل هذا كلام نظري لا مصداق له من الواقع؟ بل له أمثلة رائعة من الماضي والحاضر...وسنأتي بأمثلة من خير جيل، جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..نرى فيها كيف عَرَضَ لهم من موانع الاستجابة مثلُ ما كان يعرض لنا من: اعتيادٍ على محرم، أو خوفٍ على الرزق، أو على النفس والأولاد، أو غضب، أو قهرٍ من إساءة قريب، أو تعلُّقٍ بمحبوبٍ، أو ضيقٍ من مخافة مشقة في تكليف...ومع ذلك كانوا يستجيبون لأمر الله تعالى متجاوزين هذا كله..برضىً وانشراح وتسليم...

حتى أني وأنا أكتب عنهم بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام من قصصهم تلك، ومع أني ذكرتها مراراً في خطب ودروس، إلا أني في كل مرة أذكرهم وأتنسم عطر سيرتهم ترتفع همتي ويرق قلبي ويتقد إيماني كأني أسمعها لأول مرة وكأني أعيش بينهم وأرى مواقفهم رأي العين! فلا أريد أن أغادر عالَمهم الجميل هذا...حتى إذا بدأتُ أحس بألم الفراق لم أجد خيراً من أن أحاول تمثُّل أخلاقهم لتبقى روحي معهم!

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم — إن التشبه بالكرام فلاح

وقبل أن ننتقل بكم إلى هذا العالَم الجميل، أو بالأصح: قبل أن ننقل هذا العالَم الجميل إلى واقعنا لنحذو حذوهم، آتي لكم بكلام عظيم لأبي الحسن الندوي



رحمه الله من كتابه (ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين)، والذي يستعرض فيه ملامح المجتمع النبوي الذي أنقذ الله به البشرية، ثم تعاسة البشرية حين حُدنا عن خطى آبائنا هؤلاء، ليستحث هممنا أن نتقدم الركب ونأخذ بحُجز الناس عن تعاسة الدنيا ونار الآخرة من جديد.

قال الندوي رحمه الله:

«ولم يزل الرسول ﷺ يربيهم تربية دقيقة عميقة. ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويُذْكي جمرة قلوبهم. ولم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المرضاة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبةً للنفس. يطيعون الرسول في المنشَط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافاً وثقالاً. قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين. وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة. فهانَ عليهم التخلي عن الدنيا، وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة، فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها.

وانحلت العقدة الكبرى – عقدة الشرك والكفر – فانحلت العُقَد كلها، وجاهدهم الرسول جهاده الأول، فلم يحتجْ إلى جهاد مستأنَفٍ لكل أمر ونهي. وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى – فكان النصر حليفه في كل معركة. وقد دخلوا في السِّلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يُشاقُّون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكون لهم الخيَرة مِن بعد ما أمر أو نهى. حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم، وعرَّضوا أجسادهم

للعذاب الشديد إذا فرَطتْ منهم زلة استوجبت الحد. نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة، وكُسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة.

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم. وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد. لا تُجْزِعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، وطَّأ لهم أكناف الأرض، وأصبحوا عصمةً للبشرية ووقاية للعالَم وداعيةً إلى دين الله. واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله، ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته.

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء: كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله. وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم. فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزاً من الألغاز».

انتهى كلامه رحمه الله من كتابه (ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين).

نعم، لم يكن هذا الانقلاب لغزاً من الألغاز، ولا كان سحراً، ولا كان فلتةً غير قابلة للتكرار...لأنه كان ببساطة: وحياً ربانياً لامس فطرةً مهيَّأة للقبول نُفض عنها

الغبار...وهو أمرٌ تكرر ويتكرر. فالوحي محفوظ، وكل مولود يولد على الفطرة.

تعالوا الآن ننقل عالمهم الجميل إلى واقعنا لنعيش بينهم فترتفع هممنا برؤية مواقفهم...

وأنت تقرأ: قل لنفسك: ما عذركِ يا نفسُ حتى لا تستجيبي لأمر ربك؟ الغضب؟ الخوف؟ إِلفُ الحرام، تعالي وانظري كيف تصرف بشر من لحم ودم ونوازع مثلك أمام هذه الموانع، وانظري كيف أحسن الله عاقبتهم...لتحاصر نفسك فلا تجد بداً من الاستسلام لأمر ربها، وما أحسن عاقبته من استسلام !

سنُفَصِّل قليلاً في أحد عشر نموذجاً من استجابة الصحابة الكرام لأمر ربهم عز وجل في القرآن، ثم نذكر ومضات سريعة من استجابة الصحابة لأمر رسول الله ﷺ في مواقف متنوعة، تنبيك عما وراءها من جماليات هذا الجيل القرآني الفريد!



١. «فلهذا كان الصِّدّيق هو الصِّدّيق»

أحياناً يكون عذرنا لعدم الاستجابة لأمر الله هو أننا أسيء إلينا ولا يمكن أن نسامح.

نعم، هناك نوع من الناس من الأفضل ألا تختلط بهم ولا تتعامل معهم إذا كانوا من المسيئين الذين لا يتوجب عليك شرعاً أن تحسن إليهم وتصلهم...

ونعم، إذا أساء إليك شخص بأنْ ظلمك وأخذ حقك فلك أن تسعى في أخذ حقك بكل وسيلة مشروعة...

وليس مطلوباً منك أن تعفو عن شخص ظلمك ونفسُك لا تتحمل هذا العفو...

هذه كله مشروع...لكن علينا أن نفرق بين هذا كله وفي المقابل ما يفعله بعضنا بأن يرفض المسامحة حتى مع أقرب أقربائه، ويقطع رحمه ويعصي الله في التعامل مع البعض بحجة أنه أساء إليه.

أو تراه يفجر في الخصومة ويرد الصاع صاعين، أو يرفض مساعي الإصلاح قائلاً: (لقد أساء إلي إساءة لا يمكن أن أنساها).

فنقول: لن تكون إساءته إليك أكبر من إساءة مسطح لأبي بكر.

كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قريب فقير اسمه مسطح، وكان أبو بكر يَبَرُّه فينفق عليه من ماله.

مرت الأيام على هذا الحال، حتى افترى المنافقون على أمنا عائشة رضي الله عنها واتهموها في عفتها. ماذا كان يتوقع من مسطح؟ أن ينبري للدفاع عن ابنة قريبه

الذي يحسن إليه، يدافع عنها غيرةً عليها وثقةً بها لِـمَا علم من أخلاقها، وبرَّاً ووفاءً لأبيها الذي أحسن إليه طوال السنين الماضية.

لكن ما حصل هو العكس تماماً! حيث استزل الشيطانُ مسطحاً للمشاركة في تناقل الفرية على عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا! واستمرت المحنة شهراً، يعتصر فيها قلب أبي بكر ألماً مما يسمع في ابنته، ولا يدري بماذا يَرُد، ولا ينزل على النبي ﷺ في ذلك وحي...

ثم أنزل الله براءة الطاهرة المطهرة من فوق سبع سماوات، وأنزل الأمر بعقوبة من شاركوا في نشر الفرية، وكان مسطحٌ فيمن عوقبوا..

«إذن يا مسطح ما قلته في عائشة كان فرية وبهتاناً لا نصيب له من الحقيقة... لم تتحقق ولم تدقق، وبدل أن تعين وتدافع عنها وقعتَ في سمعتها! هذا وهي قريبتك التي عِرضها من عرضك، وابنة الرجل الذي أحسن إليك طوال السنوات السابقة!!»

أتصور أن هذا يمكن أن يكون مما دار في خَلَد أبي بكر، فقال: «والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال»

طبعاً، ردة فعل متوقعةٌ تماماً، بل أقل ما يُتوقع من أبي بكر...

لكن الله عز وجل يريد لعباده خلقا أسمى، فأنزل تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢).

أي: لا يحلفْ أولو الفضل ممن وسع الله عليهم (كأبي بكر) ألا يؤتوا أقرباءهم المساكين المهاجرين.. ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾

- «أنفق عليه وأعفو عنه وأصفح وقد فعل فعلته هذه؟»
- نعم: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾
- ماذا كانت ردة فعل أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ الذي كانت به الجراح والآلام من الفرية على ابنته الطاهرة طوال شهر؟

قال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي». فعاد ينفق على مسطح وقال: «والله لا أنزعها منه أبدا»، يعني لا أوقف النفقة عليه أبدا...والحديث رواه البخاري...

ما هذا؟! كأنها كبسة زر!...تحوُّل ١٨٠ درجة: من (والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا) إلى (والله لا أنزعها منه أبدا).

قال ابن كثير تعليقا على هذا الموقف: «فلهذا كان الصديق هو الصديق، رضي الله عنه وعن بنته». أيُّ سموٍّ بشريٍّ هذا؟! قولوا لي بالله عليكم؟

هل قل احترام أبي بكر عند المسلمين بعدما استجاب لأمر الله بالعفو؟ هذا الرجل المؤمن العربي الشريف الغيور على حرماته، هل انتقص من قَدْره أنْ عفا عمَّن أساء إلى ابنته؟

لا والله، بل يترضى عنه ويحبه مئات الملايين من البشر إلى يوم القيامة.

وهذا مصداق قول نبينا ﷺ: (ثلاثة أقسم عليهن) ذكر منها: (وما ظُلم عبدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا).

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح



٢. «فما جاوَزها عمر»

- من أكثر الأعذار التي نبرر بها لأنفسنا: الغضب...وكأن الغضب عذرٌ يُسَوِّغُ لنا أن نسمع الآيات والأحاديث فلا نستجيب...ولسان حال كثير منا: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة!»...لا كلام يُسمع ويطاع في حالة الغضب...حتى وإن كان كلام الله ورسوله؟!

وهنا امتحان الإيمان...هل تَـمَلَّكَ القلب حتى يكبح جماحه في حال الغضب أم لا...

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، قال: ((لا تغضب)).

فردد الرجل السؤال مراراً وفي كل مرة يجيبه نبينا ﷺ: ((لا تغضب)). والحديث رواه البخاري.

قد تقول: «لكن أنا أغضب رغماً عني؟»... فنقول:

- مطلوب منك أن تَـحكُم هذا الغضب فلا تتصرف وفقه بما يغضب الله. قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٤)
- وبما أنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾، (البقرة: ٢٨٦) إذن في وسعنا أن نفعل لك.
- ومطلوب منك أن تجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه ما استطعت. فكم تجد من الناس من يضغط نفسه ويشتت جهوده ولا يعطي نفسه حقها من الراحة والنوم والترفيه، ثم يكون غضوباً في التعامل مع أهله.
- ومطلوب منك ألا تتكبر إذا غضبت، بل تسارع إلى تهدئة نفسك والاعتذار

لمن يمكن أن تكون قد ظلمتهم بغضبك.

وليس لك أن تخالف أمر الله ونهيه بدل هذا كله متعذراً بالغضب.

الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ...صاحب شخصية قوية شديدة غضوبة للحق...ومع ذلك كله: محكومةٍ بالقرآن.

يذكر لنا البخاري في صحيحه قصة عظيمة في ذلك: أن الحر بن قيس كان من الأشخاص الذين يقربهم أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ويستشيرهم، لأنه من القراء، أي: من أهل العلم والعمل بالقرآن...هذه هي مؤهلات الشخص ليكون مستشار عمر. ليس عند عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تقديمٌ لمحسوبية أو واسطة أو وسامة أو ثراء...

الحر بن قيس كان له عمٌّ اسمه عيينة بن حصن. جاء عيينة من خارج المدينة وطلب من ابن أخيه «الحر» أن يدخلا معاً على عمر. وبالفعل، دخلا عليه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. ويبدو أن عيينة بن حصن كان يريد عطاءً من عمر. فماذا نتوقع منه أن يقول: (السلام عليك يا أمير المؤمنين. إني جئت أطلب منك عطية من مال لأستعملها في كذا وكذا. وجزاك الله خيرا).

لكن عيينة بمجرد أن دخل على أمير المؤمنين قال: «هِي يا ابْنَ الخَطَّابِ! فَوَاللَّهِ ما تُعْطِينَا الجَزْلَ ولَا تَحْكُمُ بيْنَنَا بالعَدْلِ».

يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم!

لا قال له السلام عليكم، ولا ناداه بأمير المؤمنين، ولا حتى باسمه (عمر)، ثم اتهمه بتضييع رعيته بل وحلف على ذلك قائلاً: «والله ما تعطينا الجزل»، أي لا تعطينا الكثير، «ولا تحكم بيننا بالعدل» ! يقول ذلك لمن؟ لرمز العدل عمر ! وكأن

عيينة يريد بذلك أن يهيج عمر ليدافع عن نفسه فيعطيه عطاء كبيرا !

فغضب عمر حتى هم بأن يقع به...أي يعاقبه على مقالته هذه.

طبعاً ! فالأسلوب مستفز جدا.

تصورْ خَجَلَ الحر بن قيس من تصرف عمه ! فقال الحر: «يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وإن هذا من الجاهلين».

قال ابن عباس: «فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله) (البخاري).

«ما جاوزها»...يعني لم يتعدَّ العمل بها..»وكان وقَّافاً عند كتاب الله» فكلام الله يغلب انفعالاته ويكبح جماح غضبه...آية من كتاب الله أطفأت غضب عمر ونهته عن الانتقام لنفسه.

هل قلل ذلك من قيمة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أم رفع قدره عند الله وعند الناس؟ حتى إن أكثر اسم يتسمى به المسلمون بعد أسماء نبينا ﷺ هو اسم «عمر».

بل إني كثيراً ما أجتمع باثنين أو ثلاثة فلا يكون منا إلا من كنيته أبو عمر أو له ابن اسمه عمر، وأنا منهم إذ سميت ابني الفاروق إعجاباً بفاروقية عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ..

إذاً أخي وأختي...لا تقل «أنا غضبان» وكأن الغضب يعطيك الضوء الأخضر أن تفعل ما تشاء، بل قف عند كتاب الله كما وقف عمر ليعزك الله في الدارين. فإذا أسيء إليك وافتُري عليك فـ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

٣. «رَغِم أنفي لأمر ربي»

من أكثر ما نرى فيه الإعراض عن أمر الله ورسوله ﷺ: الخلافات الزوجية، وما يترتب عليها قبل الطلاق وبعده، وما يحصل من فجورٍ في الخصومة ولجوءٍ إلى المحاكم وظلمٍ ومضارَّة بالأولاد وسعيٍ في إيذاء الزوج أو الزوجة أو أقربائهما! مع أن القرآن والسنة فيهما عشرات الآيات والأحاديث في الأمر بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان وبتقوى الله في هذه المواطن! حتى يخيل إليك أن هؤلاء المختصمين لا يرون أمر الله ونهيه أنزل لهم، بل لمخلوقات أخرى على كوكب آخر لا علاقة لهم بهم!

والمصيبة أن الظالم يرى نفسه في ذلك مظلوماً وأفعاله مبررة ! وقد يكون الظلم من الطرفين. وقد تُذَكر أحدهم من الزوجين أو أقربائهما بواجبه الشرعي فيقول لك: «أنا كلمتي ما تنزلش الأرض».

آآآه!...تنهيدةُ أَلَـمٍ ننشل أنفسنا منها بالانتقال إلى عالَم الصحابة الجميل:

روى البخاري أن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوَّج أختاً له، فطلَّقَها زوجها.. حتى إذا انقضت عِدَّتُها جاء الرجل ليخطبها من جديد.

أريدك أن تتصور مشاعر معقل بن يسار: زَوَّجَ أخته للرجل، ودعا الناس إلى الزفاف، واستقبل التهاني...ثم إذا بأخته تُطَلَّق.. يمر يوم ويومان وشهر وشهران وثلاثة ومطلقها لا يُرجعها. ومعقل وأخته في هذه المدة على أعصابهما، حزينان من جفاء الرجل. ثم يأتي الرجل بعد ذلك ليخطبها.

ماذا كانت ردة فعل معقل؟ قال للرجل: (زوجتك وفرشتك -يعني جعلتها لك فراشا- وأكرمتك، فطلقتَها ثم جئت تخطبها؟! لا والله لا تعود إليك أبدا)...ردة فعل متوقعة.

وكان مُطلِّقها رجلا لا بأس به (كما في رواية البخاري)، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه. فعلم الله الرحيمُ حاجتهما إلى بعضهما فأنزل سبحانه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٣٢) فدعا رسول الله معقلاً فتلا عليه الآية.

ماذا فعل معقل عندما سمعها؟ قال: (الآن أفعل يا رسول الله).

انقلابة ١٨٠ درجة من: (لا والله لا تعود إليك أبدا) إلى (الآن أفعل يا رسول الله) ! الآن..لا تأجيل، ولا طلب أنْ «أعطني فرصة أفكر يا رسول الله»..

قال الرواي: (فترك الحمية واستقاد لأمر الله)..انظر إلى الكلمة «استقاد»... انقياد تام.

فزوج معقلٌ أخته من الرجل.

وفي رواية خارج البخاري أن معقل بن يسار قال: (رغم أنفي لأمر ربي) أي لصق بالرَّغام، وهو التراب.

وفي رواية الترمذي أن معقلاً قال للرجل: «أُزوجك وأكرمك» (١).

يمكن إذا حصل هذا الموقف مع بعضنا هذه الأيام وجاء صهرك السابق ليتزوج ابنتك بعدما طلقها فلعلك تقول: أبداً! حلفت ما أزوجك اياها وأنا كلمتي ما تنزلش الأرض.

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترمذي ١٨٩٢.

معقل بن يسار يقول: ليس فقط كلمتي تنزل الأرض بل وأنفي ينزل إلى الأرض بما أن الأمر أمرُ الله.

هل انتقص ذلك من قدره؟ بل رفعه عند الله ثم عند خلقه، وها نحن نذكره بهذا الذكر الحسن إلى يوم الدين.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح



٤. «انْتَهَيْنا ربّنا»

- قوة الإيمان جعلت الصحابة يستجيبون لأمر الله تعالى حتى وهم في حالة السُّكْر!

يصف لنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهدا قُبَيل تحريم الخمر فيقول: (بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبي دجانة حتى مالت رؤوسهم)، يعني أن الخمرة عملت عملها وأثرت فيهم...قال:

(إذْ سمعنا مناديا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت).

انظر الآن إلى الأمر الإلهي حين يخالط الإيمان في القلب حتى وهو مغمور بطبقات من أثر الخمر...

قال أنس: (فأهرقنا الشراب)، تصور منظرهم وهم يقلبون الكؤوس على الفور ليتخلصوا مما فيها...

قال: وكسرنا القلال (جِرار الخمر)...كسروها كسرا، وكأنه إعلان صارخ أننا سنكسر التعلق بالخمر إلى الأبد..

قال: (وتوضأَ بعضُنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سُلَيم ثم خرجنا إلى المسجد)، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ ﴾ (المائدة:٩٠-٩١) (والأثر رواه البزار والطبري والهيثمي ورجاله ثقات).

في أثرٍ صحح إسنادَه الشيخ أحمد شاكر أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا: «انتَهَيْنا رَبَّنا» (عمدة التفسير).

علماً بأن ترك الخمر كان له تبعات كبيرة عليهم...في الحديث الصحيح أنَّ أبا طلحةَ سألَ النَّبيَّ ﷺ عن أيتامٍ ورثوا خَمرًا..هؤلاء أيتام مات أبوهم وقد ترك لهم خمراً قبل تحريمها.

فقالَ له النبي ﷺ: (أَهرقها)

فقالَ أبو طلحة: (أفلا نجعلُها خلًّا؟) فقالَ النبي: (لا).

وانصاع أبو طلحة.

في أميريكا، حاولت الدولة مراراً منع الخمور والبيرة، وكان أشهر محاولاتها فرض قرار منع الكحول عام ١٩٢٠م، والذي لقي معارضة شديدة وسجن كثيرون ممن لم ينصاعوا للقرار، وخرج كثيرون في الشوارع رافعين لوحات عليها: (WE WANT BEER) ، أي: نريد البيرة.

ثم اضطر الكونجرس الأميريكي لإلغاء القرار والسماح بالخمر مجددا عام ١٩٣٣م!



واحتفل الأميريكيون بشرب الخمر من الجرار والكؤوس والأحذية!



لا عجب! ففي حالة الصحابة كان هناك إيمان تجذَّرَ في النفوس، تكفيه آيتان لإعلان القطيعة التامة مع هذه العادة التي أَلِفها الصحابة عقوداً من حياتهم وكانت تمثل لهم شيئا من الترفيه في بيئة قليلة المرفهات.

أما في حالة القرار الأميريكي، فلا القوانين ولا الحبس ولا القتل ولا المحاولات البائسة الكثيرة، وآخرها هذه المحاولة التي استمرت ثلاثة عشر عاماً...لا هذا ولا ذاك فعل ما فعلته هتان الآيتان اللتان تُلِيَتا على الصحابة في ثوانٍ !

أمنا عائشة رضي الله عنها حلَّتْ هذا اللغز فقالت، فيما روى البخارى:

(إنما نزل أول ما نزل منه –أي القرآن– سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر) لقالوا: (لا ندع الخمر أبدا)، ولو نزل: (لا تزْنوا) لقالوا: لا ندع الزنا أبدا)...يعني ما كنا لنجد هذه الاستجابة الفورية لولا أن الله علَّق قلوبهم بالآخرة ورغَّبهم في الجنة ورهَّبهم من النار.

حُسِمَتْ هذه المعركة مع النفوس وأهوائها، فما كانوا بحاجة لمعركة مع كل أمرٍ ونهيٍ جديد، بل سهل عليهم أن يتركوا عاداتهم بمجرد سماعهم آية من كتاب الله تعالى.

هنا...نهمس في أذن المدخن: أخي المدخن، أيهما أسهل؟ ترك الصحابة للخمر أم تركك الدخان؟ الجواب يعتمد على الإيمان. من ناحية علمية بحتة فالخمر والدخان من مواد الإدمان، وقطعهما يؤدي لما يُعرف بالـ(**withdrawal syndrome**)، أيْ مجموعة الأعراض المزعجة الناتجة عن قطع المادة. ونحن ندرس الطلاب أن الـ(**withdrawal syndrome**) للكحول أعنف منه للنيكوتين. بل إن القطع المفاجئ للكحول قاتل أحيانا. ستقول لي: «الخمر منعت بالتدريج». صحيح، لكن مع ذلك كانت أجسامهم لا زالت معتادة عليها ويغلب على الظن أن

الصحابة عانوا عندما تركوا الخمر. لكن انظر يا أخي كيف عوضهم الله بخير منها في عقولهم وأرواحهم. انظر إلى الحديث الذي ذكرناه والذي يصف مشهدهم قبل سماع تحريم الخمر، وانظر لأسماء الصحابة فيه: (أبو طلحة وأبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبو دجانة)...لكل من هؤلاء قصةٌ عظيمة ومكانة في الإسلام رفيعة...تركوا الخمر على الفور لوجه الله، فاصطفاهم الله للعلم والجهاد والشهادة...ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه.

فيا من اعتدت عادة لا يحبها الله، تذكر نداء الله ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، واستجب كما استجاب الصحابة، لعل الله يصطفيك لرفعة الشأن ونصرة الدين كما اصطفاهم.



٥. ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾

تجد مِنا مَنْ يتردد في الاستجابة لأمر الله، وقد يعمل في عملٍ حرام ويعين أهل الباطل على باطلهم، كل هذا لماذا؟ خوفاً من الفقر.

اقتصاد مكة في العهد النبوي كان قائما على التجارة...لم تكن في مكة زراعة تُذكر ولا بترول مُستخرَج. بعدما فتح المسلمون مكة كان كثير من عرب الجزيرة لا يزالون على الشرك، وكانوا يأتون للبيت الحرام الذي يعظمونه هم أيضا، فيتبادلُ معهم المسلمون البضائع بيعاً وشراءً. هنا يأتي أمرٌ من الله تعالى بقطع هذا المصدر الذي قد يكون الوحيد أو الأهم للاقتصاد المكي ! قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾(التوبة:٢٨)

﴿ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ ﴾..إذاً لم يعد للمشركين مصلحة في القدوم إلى مكة...ستنقطع التجارة...سينهار اقتصاد مكة. هكذا تقول الحسابات الدنيوية.

لكن الله برحمته طمْأَنهم فقال: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً ﴾ - أي: فقرا - ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾

لكن لاحظ ماذا قال الله بعدها: ﴿إِن شَآءَ﴾ إن شاء أنْ يغنيكم أغناكم...أما أنتم فعليكم التزام الأمر بغض النظر عن هذا الضمان الذي ضمنه الله لكم. ليس لكم أن تشترطوا أن يبين الله لكم كيف سيعوضكم وكيف سيرزقكم حتى تستجيبوا لأمره، بل أنتم تستجيبون ثم الله يغنيكم إن شاء.

كيف سيغنيهم؟ لم يخبرهم.

استجاب الصحابة، وفعلوا ما يتسبب في انهيار الاقتصاد في الظاهر المادي. فأحل الله الجزية في الآية الأخرى التي تَتْبعها مباشرة في السورة، وفتح الله أنحاء الجزيرة العربية للمسلمين، وفتح عليهم ما بعدها أيضاً، فكان ذلك خيرا للمدن والقرى والشعوب التي أخرجوها من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان واستئثار الطغم الحاكمة الظالمة بالمال إلى عدل الإسلام، وكان خيرا للمسلمين الذين عوضهم الله عما فقدوه من التجارة.

أخي، أختي...لو أننا نستجيب لأمر الله ثقةً بحكمته ورحمته فلن يضيعنا. مع تذكر أن المسلم مأمور بالأخذ بالأسباب والاستجابة للإسلام كلاً لا بعضاً، ومن ذلك السعي في طلب الرزق وتحصيل العلوم اللازمة لذلك والتخفف من الكماليات وتجنب السرف.

هذه النصوص القرآنية ليس لها مدة انتهاء تنتهي فيها صلاحيتها حاشى كلام الله! بل هي حق وصدق أبدي. إذا عُرِضَتْ عليك وظيفة فيها محرمات...تَذَكر أن الذي رزق أهل مكة في وسط الصحراء دون مواردٍ قادرٌ على أن يرزقك... إنما يمتحن إيمانك...﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾



٦. نساء مرحومات

من مظاهر الوهَن (الضعف) التي تعانيها الأمة: تفلُّت كثير من المسلمات من الحجاب الصحيح، ونعيد: «الصحيح»...

تفلُّتٌ يَظهر افتراقه الكبير عن النماذج التي نستعرضها من خير جيل...جيل المجتمع النبوي.

لم يكن الحجاب مفروضاً على المؤمنات بداية الأمر. فكانت إحداهن تخرج وقد ظهرت رقبتها وشيء من صدرها تحت العنق (وهو ما كان يسمى بالجيب). ومع ذلك لم تكن الثياب الضيقة التي تحجم الأعضاء خياراً مطروحاً بل تأنفه نفوس المؤمنات. ثم أنزل الله تعالى في سورة (النور): ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(النساء:٢١).

والخمار لغة ما يغطي الرأس، يختلف عن النقاب الذي يغطي الوجه.

إذن فالمطلوب من المسلمة بعد هذه الآية أن تغطي رأسها ورقبتها وصدرها، ولن نتعرض للخلاف في تغطية الوجه.

تُرى كيف كانت استجابة المسلمات لهذه الآية؟ هل قُلْنَ: «لكن يا رسول الله الدنيا حَر»؟ خاصة في أجواء المدينة الحارة حيث لا مكيفات؟

هل قال النساء: (ننتظر حتى تخيط الخياطة حجابا)؟

هل قُلْنَ: (ماذا سيقول عنا نساء القبائل اليهودية المحيطة بالمدينة؟)

بل كانت الاستجابة ما رواه البخاري أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

(يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)...

يعني الواحدة منهن قد تكون سمعت الآية وهي في بيت أختها أو أمها أو صديقتها أو وهي تشتري من السوق. بمجرد أن سمعت الآية شقت من طرف ثوبها الطويل وغطت ما أمرها الله بتغطيته، حُبًّا لله وتعظيماً وطاعة ورجاء في الثواب وخوفا من العقاب.

يا من رضيتِ بالله ربًّا، أتقرئين هذه الآية من الله تعالى يقول لك فيها: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ ﴾ ...ويذكر سبحانه اثني عشر صنفا يجوز لك أن تظهري أمامهم دون حجاب... تقرئينها ثم بعد هذا تخالفين أمر خالقك سبحانه كأنك تقولين: «لا يا رب، سأُظهر زينتي أيضا لحارس العمارة وشفير السيارة والبائع في المحل وزميلي في الجامعة والعمل والمشاة في الطرقات ولكل الناس»؟!

هل تتوقعين أن تتأثري بالقرآن ويزيد إيمانك بعد ذلك؟ هل تُفَضِّلين تلبية أهوائك على لذة التنعم بالقرآن وحلاوة الإيمان؟ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١)

لاحظي نداء الله عز وجل في ختام هذه الآية، آية الحجاب...يناديك فيقول لك: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١).

المسلمة الموقنة بحكمة الله ورحمة الله لا تتردد في طاعته، ولا تهتم بكلام

الناس الذين يـُخَذِّلونها عن الحجاب الصحيح. ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾(التوبة:٦٢) فمن خالف بأهوائه أمر الله ورسوله فلا ينبغي لنا أن نهتم برأيه فينا ولا نظرته إلينا.

الصحابية أميمة بنت رقيقة قالت: (بايَعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في نِسوةٍ، فقالَ لَنا: (فيما استطعتُنَّ)..قلتُ: اللَّهُ ورسولُهُ أرحَمُ بنا منَّا بأنفُسِنا).

ما أجملها من عبارة! وما أعظم تعبيرها عن الثقة المطلقة والإيمان العميق: (اللَّهُ ورسولُهُ أرحَمُ بنا منَّا بأنفُسِنا)...فإذا أمرَنا بأمرٍ فلا شك أننا سنستطيعه وأنه سيكون في صالحنا.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح





٧. (وخير الخَطّائين التوّابون)

قلنا أننا إذا أردنا أن نتأثر بالقرآن كما تأثر الصحابة، فلا بد أن نتخذ القرار بالاستجابة الحية السريعة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، ثم رأينا نماذج عظيمة من سرعة استجابة الصحابة لآيات القرآن.

هل يعني هذا أن الصحابة لم يخطئوا أبدا؟ لا بالطبع، فـ((كل بني آدم خطاء)) لكن ((وخير الخطائين التوابون))...كانوا يتوبون من أخطائهم ولا يصرون عليها ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٥)، فتُمحى سيئاتها من سجلاتهم وتزول بقعها من قلوبهم.

صحيح أن كثيرا من الصحابة فرَّ يوم معركة أُحُد عندما تغلب المشركون وكثر القتل في المسلمين، وكان هذا الفرار معصية. لكن انظر إلى حرصهم على تدارك الخطأ ومحو السيئات.

علم رسول الله ﷺ أن المشركين يخططون للقضاء على المسلمين بعد معركة أحد، وكان الصحابة منهكين مثخنين بالجراح. فأذَّن مؤذن رسول الله بالخروج للتصدي للعدو. كيف استجاب الصحابة وهم في جراحهم؟ تعالوا نرى مشهداً يمثل موقفهم:

روى الطبري أن أخوين من بني عبد الأشهل كانا قد رجعا جريحين من معركة أُحُد. فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قال أحدهما لأخيه: (أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟!) فخرجا مع رسول الله مَشْياً وليس لهما دابة يركبانها. وكان أحدهما أخف جرحا من الآخر، فكان يحمل أخاه كلما كاد يسقط

من التعب إلى أن وصلوا إلى حمراء الأسد، وهي على بعد حوالي ١٣ كيلومترا من المدينة. تصور المشي لهذه المسافة بهذه الجراح وفي جو الصحراء الحار، وأحدهما يكاد يسقط من التعب والجراح، والآخرُ «الجريح أيضاً» يحمله ! لا ليصلا إلى مستشفى ولا إلى البيت ليناما، بل ليجاهدا العدو!! جراحٌ أثخنت جسديهما لكنها لم تنلْ من الإيمان العميق في قلبيهما !

ولا شك أن مثلهما مـمَّن خرج منهكاً جريحاً الكثير من الصحابة...

وتعرض المسلمون للتخويف فقيل لهم: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ﴾ (آل عمران:١٧٣)، لكن ذلك لم يصدهم. بل أقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاثة أيام، فهاب المشركون أن يقاتلوهم، فرجع رسول الله والمسلمون معه إلى المدينة.

موقف عظيم من الصحابة غسلوا به خطأ التولي يوم أُحُد، فأثنى الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ -يعني الجراح- ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٢-١٧٣)

أخطؤوا بالأمس، لكنهم محوا أثر خطئهم سريعاً وبيضوا صفحاتهم عند ربهم. فكانت العاقبة في تتمة الآيات: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

نعم، نحن بشر نضعف أحياناً ونزل أحياناً، لكن المهم ألا نُصِرَّ على معصية، بل نعود ونستغفر ونغسل آثار معاصينا بالنشاط في الخير ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود:١١٤).

٨. « أرى ربّي يَسْتَنْفِرُني»

العبادة طاعة مطلقة وخضوع تام، ليست طاعة انتقائية ! كثيراً ما أسأل الشباب: «هل تصلي؟»، فيقول: (بَقَطِّع)، يعني يصلي أحياناً ويقطع الصلاة أحياناً...أي يطيع الله بحسب المزاج ! وهذه الطاعة المزاجية لا تسمى عبادة.

عندما بايع النبيُّ الأنصار كان مما قاله: ((تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل)). إذاً في حالة النشاط تتفنن في النوافل والمندوبات، لكن في الكسل يبقى عليك أن تقوم بالحد الأدنى على الأقل. فالكسل ليس عذرا للتفلت من طاعة الله عز وجل.

فَهِمَ ذلك أبو طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما قرأ سورة التوبة فوصل قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ أي: اخرجوا للجهاد ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾، فقال لأبنائه: «ألا أرى ربي يستنفرني شابا وشيخا..جَهِّزُوني». أي أنني أفهم من هذه الآية أن ربي يريد مني الخروج للجهاد خفيفا كما في الشباب وثقيلا كما في كبر السن. فجهزوني بعُدة الحرب يا أبنائي.

فقال له أبناؤه: «قد غزوتَ مع رسول الله ﷺ حتى قبض - أي: توفي- وغزوت مع أبي بكر حتى مات وغزوت مع عمر، فنحن نغزو عنك».

هذا النقاش دار في عهد عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد بلغ أبو طلحة سبعين سنة أو أكثر. فأولاده رأوا أن من حق أبيهم أن يأخذ راحة بعد هذه التضحيات العظيمة في عهد النبي ﷺ واثنين من خلفائه الراشدين.

لكن أباهم أصر وقال: «جَهِّزُوني»، فجهزوه، وكانت غزوة بحرية، فركب البحر،

لكنه مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام. أراد الله عز وجل أن يكرم هذا الصحابي فحفظ جسمه في هذا الأسبوع فلم يتغير جسمه، مع أن الميت يبدأ يتغير من أول يوم في الأجواء الحارة. والأثر أخرجه ابن حبان وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

نفسياتٌ عظيمة لا تبحث عن أعذار، بل تستخرج من الآيات وسائل للتقرب من الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (المائدة:٣٥).





٩. «أرِني يدك»

فكِّر في أرقى مكان تتمنى أن تسكنه في بلدك أو خارجها...وقد جاءك من يعرض عليك أن تتنازل عن بيتك الذي أنت فيه الآن وتنتقل إلى بيت أبسط مقابل أن يـُمَلكك بعد سنة قصرا مع حديقة كبيرة في هذا المكان الذي تتمناه!

بالنسبة للصحابة، يقينهم بالآخرة يجعل الصفقة مع الله أكثر إغراء من هذه الصفقة..فالدنيا الفانية عندهم أقل من السَّنَة في حساباتنا، وما تركوه من دور وبساتين لوجه الله تعالى لا يقارن بأرض الجنة التي قال فيها النبي فيما رواه البخاري: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))...

ياه! السوط الذي يُضرب به الخيل لو وَضَعْتَه على الأرض سيحتل مساحة لا تتجاوز سنتمترات مربعة. هذه المساحة في الجنة خير من الدنيا وما فيها.

نعم...فيكفي أنها باقية والدنيا فانية.

في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم:

(كانَ أبو طَلْحَةَ أكْثَرَ الأنْصَارِ بالمَدِينَةِ مَالًا، وكانَ أحَبَّ أمْوَالِهِ إلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وكانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْخُلُهَا ويَشْرَبُ مِن مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ)

حديقة جميلة هي الأغلى على قلب أبي طلحة، مطلة على المسجد النبوي وتتشرف بزيارة النبي ﷺ لها مرة بعد مرة.

(يتابع الحديث: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) قَامَ أبو طَلْحَةَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: (يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يقولُ في كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) وإنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وإنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أرْجُو برَّهَا وذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يا رَسولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ).

كان بإمكان أبي طلحة أن يفكر في الحد الأدنى الذي يحقق به الاستجابة لهذه الآية. فلو تبرع بكيلو من البلح لصح فيه أنه أنفق مما يحب. لكنه التفنن في نيل رضا الله تعالى !

فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((بَخٍ، ذلكَ مَالٌ رَائِحٌ، ذلكَ مَالٌ رَائِحٌ، قدْ سَمِعْتُ ما قُلْتَ فِيهَا، وأَرَى أنْ تَجْعَلَهَا في الأقْرَبِينَ)). و «بخٍ» تقال في الرضا والإعجاب، و«مالٌ رائح»، أي ينصرف إليك نفعه وأجره.

فقَالَ أبو طلحة: (أفْعَلُ يا رَسولَ اللَّهِ)، فَقَسَمَهَا أبو طَلْحَةَ في أقَارِبِهِ وبَنِي عَمِّهِ.

بستان كامل! بل أحب بساتينه إليه.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال أبو الدحداح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: ((نعم يا أبا الدحداح)).

ما معنى الآية؟ معناها أن الله يريد أن ننفق في سبيله ليعيد لنا ما أنفقناه يوم القيامة كما يعاد القرض، لكن في حالة التعامل مع الكريم سبحانه فإنه يعيده أضعافا مضاعفة.

كيف استجاب أبو الدحداح لهذا التحفيز الرباني؟ قال لرسول الله: (أرني

يدك)...يعني يريد أن يعاهده على شيء.. فناوله النبي يده، فقال أبو الدحداح: (قد أقرضت ربي حائطي) يعني بستاني. وبستانه هذا كان فيه ستمائة نخلة. يعني بحسبة بسيطة لا يتوقع أن تقل مساحة البستان عن ثلاثين دونماً! وأين؟ في المدينة المنورة، ولك أن تتصور كم تساوي هذه الأرض في ذلك الوقت.

تنازل عنها أبو الدحداح بمجرد أن سمع: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

ثم ذهب إلى بستانه وزوجتُه وأولاده فيه فنادى: (يا أم الدحداح) قالت: (لبيك)...قال: (اخرجي فقد أقرضته ربي) (الحديث صححه الألباني).

زوجته وأولاده كان يكفيهم هذه الكلمة ليضحوا بالبستان وبالأوقات الجميلة فيه لأنهم يعرفون معنى (أقرضته ربي) ويعرفون معنى التعامل مع الكريم سبحانه.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح



١٠. «ذَلّتْ بها ألسِنَتُهم»

وهذا نموذج آخر...نموذج من الاستسلام لأمر الله الذي يعقبه الخير الكبير. وهو في حديث رواه الإمام مسلم.

أنزل الله تعالى على رَسولِه ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

فهم الصحابة من الآية أن الله تعالى يحاسبهم على خطرات النفوس وما توسوس به. فخافوا واشتد ذلك عليهم، فأتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا علَى الرُّكَبِ...وهي حركة يفعلها من يترجى في شأن خطير!

فقالوا: (أيْ رَسولَ اللهِ، كُلِّفْنا مِنَ الأعْمالِ ما نُطِيقُ: الصَّلاةَ والصِّيامَ والْجِهادَ والصَّدَقَةَ، وقدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِه الآيَةُ ولا نُطِيقُها)، يعني لا نستطيع تحمل تبعاتها.

ولاحظ أن الآية لا تهددهم بعذاب عاجل في الدنيا، بل بحساب قد تعقُبه مغفرة أو عذاب. ولو كان بعضٌ مِنَّا مكانهم فلعله يقول: «أمر الآخرة للآخرة، وأعمالي من الخير كثيرة، والله غفور رحيم، فعلام الخوف؟»!

أما الصحابة رضوان الله عليهم فيتعاملون مع الوحي تعاملاً جادًّا كأنهم يرون الساعة والحساب واقعة غداً، ولا يهدأ لهم بال ولا يستطيعون العودة لممارسة حياتهم الطبيعية حتى يطمئنوا إلى بياض صحائفهم. وهو الأمر الذي كان يدفع من وقع في حدٍّ منهم إلى أن يسارع إلى طلب التطهير.



فهم الصحابة من الآية أنهم مؤاخَذون بما لا قدرة لهم على دفعه من الخواطر التي لا تكتسب. فجاؤوا خائفين إلى النبي ﷺ يترجون مسترحمين بأنهم لا يستطيعون تحمل تبعاتها، فيطلبون التخفيف.

فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن أمرهم بالإذعان لأمر الله تعالى، فقال لهم: (أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولوا كما قالَ أهْلُ الكِتابَيْنِ مِن قَبْلِكُمْ سَمِعْنا وعَصَيْنا؟ بَلْ قُولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ).

هل ناقشوا نبيهم ﷺ؟ هل أخذوا وأعطوا؟ هل طالبوه بإقناعهم بالحكمة من هذا الأمر؟

كلا...تذكر قول الندوي رحمه الله: (وانحلت العقدة الكبرى- عقدة الشرك والكفر- فانحلت العُقَد كلها، وجاهدهم الرسول جهاده الأول، فلم يحتجْ إلى جهاد مستأنَفٍ لكل أمر ونهي. وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى- فكان النصر حليفه في كل معركة).

لم يناقشوا ولم يتبرموا. بل قالوا كما أُمروا: (سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ).

قال أبو هريرة -رواي الحديث-: «فَلَمَّا اقْتَرَأَها القَوْمُ، ذَلَّتْ بها أَلْسِنَتُهُمْ»...أي كأنهم رددوا الآية وغالبوا بها نوازع نفوسهم حتى انقادوا لأمر الله في الآية ووطنوا نفوسهم على الانصياع له وإن شق عليهم وفي رواية ابن عباس: «فألقى الله الإيمان في قلوبهم»..انظر ما أجمل هذا اللفظ!.

فجاءت المكافأة الربانية العظيمة: امتدحهم الله على هذا الموقف الجليل فأنزل

سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥). وأعقبها سبحانه ببيانٍ كان فيه فرحهم وكشف كربتهم فقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾(البقرة:٢٨٦)

فبين سبحانه أنه لا يكون منه أن يكلف نفساً بشيء خارج مقدورها ووسعها مما لا يمكنها دفعه. وإنما بما تكتسبه عن إرادة منها. فما ليس في الوسع فليس داخلا في المحاسبة أصلا. وبذلك فما يجول في الصدور من خطرات ووساوس لم يركنوا إليها ولم يأخذوا بها فهم غير محاسبين عليه.

وقد كان من حكمة الله تعالى في تأخير هذا البيان -والله أعلم- أن يستخرج منهم عبودية الإذعان والاستسلام حتى لما يشق على نفوسهم، فيجمع لهم بعد ذلك الرحمة والتخفيف مع الأجر والكرامة ورفعة المنزلة وحسن الذكر على انصياعهم لما فهموه من تكليف شاق.

وجعل فيهم وفي نبيهم الذي أمرهم بهذا ﷺ أسوة لمن بعدهم إلى يوم الدين.

ولم يكتفِ سبحانه بهذا الفضل، بل تتالت كراماته في الآيات فقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ يتابع الحديث أن الله سبحانه قال: (نَعَمْ)، وفي رواية ابن عباس قال سبحانه: (قد فعلتُ)، أي: استجبت دعاءكم هذا.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ ﴾ أي: تكاليف شاقة كالتي كلف الله بها بعض الأمم قبلنا تأديباً على تهاونهم في أمر الله..

قالَ سبحانه: نَعَمْ

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾

قالَ سبحانه: نَعَمْ

﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

قالَ سبحانه: نَعَمْ.

فلقَّن الله نبيه ﷺ والمؤمنين معه ما يدعون به وبشرهم بأنه استجاب لهذا كله مما يجمع خيري الدنيا والآخرة.

وهي بشارة أيضاً لمن يسير على نهجهم في الامتثال والإذعان لأمر الرحمن.

فانظر إلى هذا المثال البديع من تسليم الصحابة لأمر ربهم حتى حينما ظنوا أنهم كُلفوا بما يشق من المسؤولية عن خطرات النفوس...انظر إلى سرعة إذعانهم بعد تردد عارض واستجابتهم للأمر الحازم من نبيهم صلى الله عليه وسلم. وما تبع هذا من الخير العظيم العميم.

انظر وقارن بحال مَن يتفلت من أوامر الله التي هي في الوسع والطاقة. ولا يخاف مع ذلك من عاقبة تفلته.



١١. «يا رسول اللّه.. أنكِحُ عناقاً؟»

هل تظن أن الصحابة قبل أن يُسلموا لم تكن لبعضهم علاقات «عاطفية» مع بعض الفتيات أو النساء؟

بلى...لكن حتى هذه العاطفة الجامحة تخلوا عنها طاعةً لله تعالى.

مَرثد الغنوي رضي الله عنه، كان في الجاهلية يحب امرأة اسمها عَناق، وكانت هي تحبه وكانت صديقة له. وكانت عَناقُ هذه بغياً..

أسلم مرثد ولم تسلم عناق وبقي حبها في قلبه، فأتي النبي فقال: «يا رسولَ اللَّهِ، أنكحُ عناقًا؟»، وأعاد السؤال: «يا رسولَ اللَّهِ، أنكحُ عناقًا؟».

سكت نبينا عليه الصلاة والسلام ولم يردَّ على مرثد شيئًا حتَّى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ۝٣﴾ (النور) فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (يا مرثدُ، ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فلا تَنكِحْها) [١].

هل اعترض مَرثد؟ بل امتثل أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وطوى صفحة عَناق بلا رجعة، وتجاوز التعلق الذي يجده الرجل في نفسه

(١) (قال ابن العربي في عارضة الأحوذي عن هذا الحديث: حسن صحيح جدا).

تجـاه مــن يحــب[١] . لمــاذا؟ لأن حــب اللــه والخشــية مــن اللــه أعظـم فـي قلبـه مـن حـب عَنـاق.



(١) قد تقول في نفسك: «لكن كيف يحب صحابي جليل امرأة كهذه، كافرةً بل وبغيـاً؟! حتىٰ وإن كان قد تعلق بها من أيام الجاهلية..ولماذا لم يزجره النبي ﷺ علىٰ مجرد هذا الطلب أن يتزوجها؟» وقد أجبنا عن هذه التساؤلات بالتفصيل في حلقتَي «محبة غير المسلمين» و»وغلبَتْ محبةُ الله» من سلسلة «كُن عزيزاً بإسلامك»، وبيَّنَّا أن الله تعالىٰ لا يحاسب المسلم علىٰ المحبة التي قد يجدها في نفسه لكافر بدافع القرابة أو الغريزة أو الصداقة والإلف أو الإحسان، لكنه تعالىٰ يحاسبه إذا أدت هذه المحبة إلىٰ معصية الله تعالىٰ. كما بيَّنَّا أنه يعارض الإيمانَ أن يحب الكافر لكفره أو العاصي لمعصيته.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

نماذج من طاعة رسول الله ﷺ

النماذج الإحدى عشرة التي ذكرناها حتى الآن هي لاستجابة الصحابة لأمر الله تعالى في القرآن. وقد كانوا يدركون جيداً أنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). فكانوا سريعي الاستجابة لأمر نبيهم ﷺ بثقة ويقين بحسن العاقبة.

نضع لك هنا أيها القارئ الكريم -بشكل مختصر سريع- نماذج من استجابة الصحابة لنبيهم ﷺ لنعيش معاً ومضات من هذا العالَم الجميل. سنذكر تسعة نماذج فقط نكمل بها العشرين، لتنبيك عما وراءها من طاعة وامتثال، وحب وتعظيم وإجلال. وإلا فحياتهم كانت كلها استجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ.

١٢. «فإنه لن يُضَيِّعَني»

يخطب رسول الله ﷺ فتاة من الأنصار إلى الصحابي جليبيب، فيمتنع والدا الفتاة..فتقول الفتاة: (أَتَرُدون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني، فإنه لن يُضَيِّعني)..يعني ادفعوني إلى رسول الله يزوجني من شاء فإن رسول الله أعلم بمصلحتي ولن يضيعني..فانظر إلى هذه الثقة المطلقة!

زوَّجها رسول الله ﷺ من جليبيب، ثم توفي جليبيب في معركة، ودعا لها رسول

الله ﷺ قائلاً: (اللَّهُمَّ صُبَّ عليها الخيرَ صَبًّا، ولا تَجعَلْ عَيشَها كَدًّا كَدًّا)، يعني لا تجعل معيشتها صعبةً. فما كان في الأنصار أَيِّمٌ أنفقَ منها..يعني تسابق الأنصار على خطبتها بعد عدتها [١].

١٣. «اللّهُ ورسولُهُ أرحمُ بنا منا بأنفسِنَا»

جاءت أميمة بنت رقيقة مع مجموعة من النساء ليُبايِعنَ النبي ﷺ على ألَّا يُشرِكْنَ باللهِ شيئا، ولا يسرقنَ ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتينَ ببهتانٍ يَفْتَرِينَه بين أيديهن وأرجلهن[٢] ولا يعصينه في معروف.

فقال النبي ﷺ لهن: (في ما استطعتُنَّ وأطقتُنَّ)..مُذكراً بأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

فقالت أميمة: «اللهُ ورسولُهُ أرحمُ بنا منا بأنفسِنَا»[٣] ..يعني يا رسول الله، إذا أمرنا الله بأمرٍ أو أمرْتَنا بأمر، فإنا على ثقة ويقين بأن هذا الأمر فيه الرحمة بنا أكثر مما نرحم نحن أنفسنا. ثقةٌ مطلقةٌ وتسليم جميل.

---

(١) قال شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند ٤٨٧٩١: « إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم».
(٢) يعني ألا تأتي الواحدة منهن بولد من غير زوجها ثم تنسب هذا الولد إليه.
(٣) أخرجه الترمذي ٧٩٥١ وقال حسنٌ صحيح، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند ٧٠٠٧٢.

١٤. «لا واللّه لا آخذه أبداً»

رأى سول الله ﷺ خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه وطرحه -يعني رماه في الأرض- وقال: «يَعْمدُ أَحَدُكُمْ إلى جَمْرَةٍ مِن نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في يَدِهِ؟!»..أي أن الرجل حين يلبس خاتما من ذهب -وهو محرم على الرجال- فكأنه وضع في يده جمرةً من النار، لأنها تتسبب له في العذاب يوم القيامة.

فِقيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ ما ذَهَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ به»..يعني بِعهُ أو أعطه أحداً من النساء. فقالَ: «لا وَاللَّهِ، لا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ» (١)!

ولو أنه أخذ الخاتم وانتفع به لما كان ذلك حراماً عليه، لكنه تورَّع عن أخذه مبالغةً في امتثال أمر النبي ﷺ.

أذكر أني رأيت سنسالاً «عِقداً» من ذهب في رقبة شاب مسلم باكستاني أو هندي بمسجد في أميريكا، فأخبرته بالحديث وقلت له: «تصور لو أن رسول الله ﷺ كان بيننا اليوم ورآك فأخذ العِقد وطرحه في الأرض، هل كنت سترفعه وتلبسه مرةً أخرى؟».

فقال الشاب: «لا»..ونزع العقد مباشرة جزاه الله خيراً.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٩٠.

١٥. (استوصوا بالأسارى خيرا)

عن أبي عزيز بن عمير رضي الله عنه قال: كنتُ في الأسرَى يومَ بدرٍ -يعني قبل أن يسلم- فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (استوصوا بالأُسارى خيراً). وكنتُ في نفرٍ من الأنصارِ، فكانوا إذا قدَّموا غداءَهم وعشاءَهم أكلوا التمرَ وأطعموني البُرَّ لوصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ [١].

يعني كانوا يفضلونه على أنفسهم بالطعام مع أنه كان وقتها مشركاً، وذلك امتثالاً لأمر النبي ﷺ حين قال (استوصوا بالأُسارى خيراً). ولو أنهم أطعموه كما يأكلون لكانوا بذلك منفذين لوصية النبي ﷺ بالأسارى، ولكنه الحرص على امتثال الأمر على أكمل وجه.

١٦. «فاغْتَبَطْتُ»

فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، طلقها زوجها ثلاثا، وانقضت عدتها فخطبها ثلاثة من الصحابة. فأشار عليها النبي ﷺ بأن تتزوج أسامة بين زيد من بين الثلاثة. فقالت: «أسامة، أسامة»، وأشارت بيدها أنه لا يعجبها، فقد كان رضي الله عنه أسود البشرة جداً ولم يكن ذا حسب ووجاهة. لكن رسول الله ﷺ يعلم عنه الخلُق والدين. فقال لها رسول الله ﷺ: (طاعة الله وطاعة رسوله خير لك)..قالت فاطمة: «فتزوجتُه، فاغتبطتُ»..يعني سُررتُ بعد زواجي منه وكانت عيشتي معه هنيئة [٢].

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٩٨: إسناده حسن.
(٢) مسلم برقم ١٤٨٠.

١٧. «وإنا لَجياعٌ نشتهيه»

مر رسول الله ﷺ بقُدورٍ تغلي فقال لرجالٍ من الصحابة كانوا عندها: (ما هذا اللَّحْمُ؟) فقالوا: «لَحمُ حُمُرٍ»، فقال: (أَهْليَّةٍ أو وَحْشيَّةٍ؟) فقالوا: «بَلْ أهليَّةٍ». فقال: (فاكْفِئوها)..أي: ألقوا ما في القُدور في الأرض. قال أبو سعيد راوي الحديث: «فكَفَأْناها، وإنَّا لَجِياعٌ نَشْتَهيهِ».فلم يتململوا ولم يراجعوا رسول الله ﷺ في الأمر، ولم يسألوا: لماذا يا رسول الله؟ بل استجابوا على ما كانوا يعانونه من جوع.

١٨. «فرأيتهنّ يَهْوِينَ إلى آذانهن وحُلُوقهن»

يذكر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كيف خطب النبي ﷺ الناس في العيد، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وذَكَّرَهُنَّ وأَمَرَهُنَّ بالصَّدَقَةِ. قال ابن عباس: «فَرَأَيْتُهُنَّ يَهْوِينَ إلى آذَانِهِنَّ وحُلُوقِهِنَّ، يَدْفَعْنَ إلى بلَالٍ»[1] .

يعني تمد إحداهن يدها إلى أذنها وإلى رقبتها فتنزع منهما القِرط (زينة الأُذن)، والعِقد، ويعطينها لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان يجمع الصدقات ليُتصدق بها على فقراء المسلمين وفي وجوه الخير.

استجابةٌ فوريةٌ دون تردد ! لم تتأخر إحداهن إلى حين تعود إلى بيتها فتقدم للصدقة ما يزيد عن حاجتها، بل تصدَّقْن على الفور بما يلبسنه رضي الله عنهن.

---

(١) البخاري ٩٤٢٥



١٩. أَسْرَعُ صُلْحٍ في دَيْن!

روى كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه طلب من ابْن أَبِي حَدْرَدٍ سداد دَين عليه وهما في المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُما حتَّى سَمِعَهَا رَسولُ اللَّه ﷺ وهو في بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إلَيْهِما رَسولُ اللَّهِ ﷺ من حُجْرَتِهِ، ونَادَى كَعْبَ بنَ مَالِكٍ: (يا كَعْبُ) قَالَ: «لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ»، فأشَارَ النبي ﷺ بيَدِهِ أنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِن دَيْنِكَ، يعني سامح ابن أبي حدرد بنصف الدَّين، فقَالَ كَعْبٌ: «قدْ فَعَلْتُ يا رَسولَ اللَّهِ»..هكذا على الفور وبلا تردد!

فقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لابن أبي حدرد: (قُمْ فَاقْضِهِ)[١] ، يعني أعطِ كعباً النصف الذي تبقى عليك.

٢٠. «يا رسول الله، بِأَبينا أنت وأُمِّنا»

هاجر الحبيب المصطفى ﷺ إلى المدينة ولم تهاجر معه ابنته زينب رضي الله عنها، وكانت زوجة لأبي العاص بن الربيع، وكان مشركاً. ولم يكن قد نزل بعد تحريم زواج المؤمنة من الكافر. ووقعت معركة بدر، وكان أبو العاص زوج زينب ممن وقع في أسر المسلمين. فبعث أهل مكة إلى المدينة في فداء أسراهم من المشركين. وكان ممن بعث: زينب رضي الله عنها، لتفتدي زوجها. بماذا تفتديه؟ بقِلادةٍ لها كانتْ أُمُّها خَديجةُ رضي الله عنها قد زيَّنَتْها بها حين زفَّتْها إلى

---

(١) متفق عليه.

أبي العاصِ.

فلمَّا رَأى رسولُ اللهِ ﷺ القِلادةَ رَقَّ لها رِقَّةً شَديدةً حتى دمَعَتْ عَيناه، وقال: (إنْ رَأَيتُم أنْ تُطلِقوا لها أسيرَها، وأنْ تَرُدُّوا عليها الذي لها، فافعَلوا)..

كأن القلادة هيجت في قلب الحبيب ﷺ الذكريات: ذكرى الزوجة الوفية البارَّة خديجة، التي وقفت معه تسند دعوته بكل ما أوتيت من قوة.

ذكرى ابنته الحبيبة زينب وهي فتاة تُزفُّ إلى عريسها وابن خالتها أبي العاص... والظاهر أن ذلك كان قبل بعثة النبي ﷺ[(١)].

أدرك نبينا ﷺ أن زينب أرسلت أغلى ما تملك لتفتدي به زوجها. فأحب ﷺ أن يكرمها ويجبر خاطرها بردِّ زوجها والقلادة معاً. لكن هذا مالٌ عام للصحابة حق فيه. فطلب النبي ﷺ من الصحابة طلباً غير مباشر مع أنه النبي والقائد!: (إنْ رَأَيتُم أنْ تُطلِقوا لها أسيرَها، وأنْ تَرُدُّوا عليها الذي لها، فافعَلوا).

بماذا رد الصحابة رضي الله عنهم؟ قالوا: «يا رسولَ اللهِ، بأبِينا أنتَ وأُمِّنا»[(٢)]

كأنهم يقولون: يا رسول الله! وكأنك تطلب هذا الطلب الهين على استحياء، ولو أنك طلبت أن نفديك بأرواحنا وأمهاتنا وآبائنا لفعلنا!

فأطلَقوا أبا العاص وأرجعوا إلى زينب القلادة.

وكان رسول الله ﷺ أخذ من أبي العاص وعداً أن يخلي سبيل زينب إليه -يعني يبعثها إلى أبيها ﷺ بعد وصوله إلى مكة- وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة

(١) وذلك حسبما ذكر ابن إسحق ولكن لم يسنده، فالله أعلم.

(٢) حسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار ٨٠٧٤ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٢٩٦٢.

ورجلا من الأنصار، فقال: (كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها)[١] .



(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٩٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٦٠٣٤). قال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

وبعد، فهذه النماذج العظيمة التي رأيناها...أليست قابلة لأن تُحيى في واقعنا؟

بلى والله، بل وفي الحاضر أمثلةُ خيرٍ كثيرةٌ مصداقاً لقول نبينا صلى الله عليه وسلم:

(مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدرى أوله خيرٌ أم آخره)

فالخير موجود في جميع طبقاتها وعصورها.

إنما نحتاج أن نعمق الإيمان باليقينيات الكبرى في نفوسنا وفي نفوس الجيل ليثمر مثل هذه المواقف، وأن نبقى نستمد من نور الأولين ونتذاكر سيرهم وأنهم تركوا الدنيا -كما سنتركها- وقد أرضوا ربهم فغفر ذنبهم وأعظم أجرهم وأعلى ذكرهم وأحل عليهم رضوانه إلى يوم يلقونه.

فما أحسن ما استغلوا به مزرعة الدنيا الفانية للآخرة الباقية. فهل نعمل بعملهم؟

نسأل الله أن يوفقنا لحذو آثارهم ويجعلنا يوم القيامة في زمرتهم ويحشرنا معهم تحت لواء نبينا صلى الله عليه وسلم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح



الفهرس

الانقلابة الهائلة! ٣
١. «فلهذا كان الصِّدّيق هو الصِّدّيق» ١٠
٢. «فما جاوزها عمر» ١٣
٣. «رغِم أنفي لأمر ربي» ١٦
٤. «انتهينا ربَّنا» ١٩
٥. ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ ٢٤
٦. نساء مرحومات ٢٦
٧. (وخير الخطائين التوابون) ٢٩
٨. « أرى ربي يستنفرني» ٣١
٩. «أرني يدك» ٣٣
١٠. «ذلت بها ألسنتهم» ٣٦
١١. «يا رسول الله.. أنكحُ عناقاً؟» ٤٠
﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ٤٢
نماذج من طاعة رسول الله ﷺ ٤٢
١٢. «فإنه لن يضيعني» ٤٢
١٣. «اللهُ ورسولُه أرحمُ بنا منا بأنفسِنَا» ٤٣
١٤. «لا والله لا آخذه أبداً» ٤٤
١٥. (استوصوا بالأسارى خيرا) ٤٥
١٦. «فاغْتَبَطْتُ» ٤٥
١٧. «وإنا لَجياعٌ نشتهيه» ٤٦
١٨. «فرأيتهنَّ يهْوين إلى آذانهن وحلوقهن» ٤٦
١٩. أسرع صُلْح في دَين! ٤٧
٢٠. «يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا» ٤٧

تعريف بالمؤلف: أ. د. إياد قنيبي

- أ.د. إياد عبد الحافظ قنيبي، بروفيسور علم الأدوية
- حاصل على الدكتوراه من جامعة هيوستن الأميريكية بترتيب الأول.
- مارس بحث الدكتوراه في مركز تكساس الطبي.
- مشارك في براءتَي اختراع في مجال التئام الجروح وعشرات الأبحاث العلاجية المنشورة في مجلات عالمية.
- وله موقع FixPharma.net للمحاضرات الطبية والصيدلانية.
- أصدر كتاب PharMedTerm للمصطلحات الطبية الصيدلانية.
- أحد ثلاثة مراجعين أكاديميين لأكثر كتب علم الأدوية انتشارا في العالم، وهو كتاب :

Lippincott Illustrated Reviews: Pharmacology في الطبعة الثامنة من الكتاب والصادرة عام ٢٠١٩.

- لديه سند متصل بالقرآن الكريم حفظاً عن ظهر قلب.
- تلقى العلوم الشرعية بجهد ذاتي عن عدد من العلماء، وتخرج من دورة صناعة الـمُحاوِر بترتيب الأول.
- من أشهر أعماله:

» كتب: حسن الظن بالله، رواية إيناس، متعة التدبر، ندى تشتكي لعائشة، بشائر، بهم فاقتدوا ، هذا النفاق فاحذروه.

» سلاسل مرئية: رحلة اليقين، وهي سلسلة لبناء الإيمان على أسس علمية والرد على الشبهات.

» سلسلة (المرأة) التي تعالج قضايا المرأة.

» سلسلة الحرب على الفطرة.

- للدخول على منصات المؤلف امسح رمز QR

